الصَّلَاحُ

عناصر الموضوع

مفهوم الصلاح	١٥٠
الصلاح في الاستعمال القرآني	١٥١
الألفاظ ذات الصلة	١٥٢
أنواع الصلاح	١٥٤
صلاح الخلق	١٥٨
صلاح الأعمال	١٦٨
جزاء الصلاح في الدنيا والآخرة	١٧٣

مفهوم الصلاح

أولًا: المعنى اللغوي:

الصلاح لغة: ضد الفساد، يقال: أصلح الشيء بعد فساده، أي: أقامه، وأصلح الدابة، إذا أحسن إليها[١]. قال ابن فارس: «صلح» الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، يقال: صلح الشيء يصلح صلاحًا»[٢].

والصلاح والفساد، يختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل الصلاح في القرآن تارة بالفساد، وأخرى بالسوء[٣].

وقال ابن سيده: «الصلاح ضد الطلاح، صلح يصلح ويصلح صلاحًا وصلوحًا، فهو صالح وصليح، والجمع صلحاء، وصلوح، والصالح هو: الذي يؤدي إلى الله عز وجل ما افترض عليه، ويؤدي إلى الناس حقوقهم، أي القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد[٤]، وقيل الصالح: المستقيم الحال في نفسه»[٥].

والمصلح هو: المقيم على الإيمان المؤدي فرائضه اعتقادًا وعملًا[٦].

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر المفسرون عدة تعريفات للصلاح منها ما يأتي:

أولًا: الصلاح عند الإمام أبي جعفر الطبري: لفظ عام يشمل الصلاح في استواء الخلق، والصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير[٧].

ثانيًا: عرف السمعاني الصلاح بقوله: «الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة»[٨].

ثالثًا: عرفه الزمخشري بقوله: «هو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة»[٩].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٦، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٧.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٣٠٣.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٨.
(٤) المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ١٥٢.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٦١.
(٦) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ١٥٢.
(٧) جامع البيان ١٣/ ٣٠٨.
(٨) تفسير السمعاني ٣/ ٤٧٨.
(٩) الكشاف ١/ ٦٢.

الصلاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة «صلح» في القرآن الكريم (١٨٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٦٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣]
اسم الفاعل	١٣٦	﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]

وجاء الصلاح في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣] يعني: ومن آمن من آبائهم.

الثاني: حسن المنزلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٩] يعني: تحسن منزلتكم عند أبيكم.

الثالث: تسوية الخلق: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠] يعني: سوي الخلق في صورة الإنس.

الرابع: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء:٢٢٧] يعني: الطاعات التي أطاعوا الله عز وجل.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الصاد، ص٦٩٩-٧٠٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٩-٣٠٠، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٩٧-٣٩٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصلاح:

الإصلاح في اللغة:

خلاف الإفساد[١].

الإصلاح اصطلاحًا:

التغيير إلى استقامة الحال[٢].

وقيل: هو «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»[٣].

الصلة بين الصلاح والإصلاح:

أن الصلاح قاصر على الشخص نفسه، والإصلاح متعدي إلى الغير، بحيث يشمل إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر، وإصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها، وإصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط[٤].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٤٢.
(٢) انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٥١.
(٣) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٢١٥.
(٤) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٣٥١.

٢ الصلح:

الصلح لغة:

الصلح بالضم هو السلم-بكسر السين وفتحها-من تصالح القوم بينهما، والصلح أيضًا:اسم جماعةٍ متصالحين، يقال:هم لنا صلحٌ:أي مصالحون[١].

الصلح اصطلاحًا:

عبارة عن عقد وضع لرفع المنازعة بالتراضي[٢].

الصلة بين الصلاح والصلح:

أن الصلح سبب للصلاح والاستقامة؛ لأن القيام بالصلح بين الناس من أخلاق الصالحين.

٣ الفساد:

الفساد لغة هو:

خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[٣].

الفساد اصطلاحًا:

كلمة عامة تتناول كل ما هو خلاف الصلاح من المعاصي والهلاك قحط المطر وقلة النبات القتل السحر وغيرها[٤].

الصلة بين الصلاح والفساد:

أن الفساد ضد الصلاح ونقيضه.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٨.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٩١.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص٦٣٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٣٥.
(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ص ١١٥.

أنواع الصلاح

الصلاح في القرآن الكريم يأتي على نوعين هما:

أولًا: صلاح الخلق:

وصلاح الخلق على قسمين:

١. الصلاح المادي.

وهو استواء الخلق والعقل كما قال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠].

قال أبو جعفر الطبري: « ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، يقول: نادى آدم وحواء ربهما وقالا يا ربنا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، واختلف أهل التأويل في معنى الصلاح الذي أقسم آدم وحواء عليهما السلام أنه إن آتاهما صالحًا في حمل حواء: ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فقال بعضهم: ذلك هو أن يكون الحمل غلامًا، وقال آخرون: بل هو أن يكون المولود بشرًا سويًا مثلهما، ولا يكون بهيمة، فقد أشفقا أن لا يكون إنسانًا».

ثم قال أبو جعفر: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء، صالحًا ليكونان لله من الشاكرين»[1].

وفي هذه الآية اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾هل يعود إلى آدم وحواء، أم يعود إلى غيرهما، على أقوال، والراجح أن الضمير يرجع إلى ذرية بني آدم، ممن جاء بعده جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد[2].

قال الإمام الرازي: « قال الإمام القفال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة

(١) جامع البيان ١٣/ ٣٠٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣١٤.

ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد»[1].

ومن الصلاح المادي في القرآن ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد العقار أي: بعد عقرها، أو حسنة وكانت سيئة الخلق[2].

«قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها كانت عاقرًا فجعلت ولودًا، وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق. قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا»[3].

وعموم اللفظ يتناول جميع الإصلاح[4].

قال الراغب الأصفهاني: «وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحًا، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح، قال تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد:٢].

قال تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧١].

وقال تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ [الأحقاف:١٥] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

أي: المفسد يضاد الله في فعله، فإنه يفسد والله تعالى يتحرى في جميع أفعاله الصلاح، فهو إذا لا يصلح عمله»[5].

٢. الصلاح المعنوي.

والمراد به الإيمان والاستقامة على الدين، وهذا الصلاح قد يكون في جماعات وأمم، وقد يكون في أفراد، على ما يأتي:

الأول: فمن الصلاح المعنوي الذي يكون في جماعات وأمم، قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف:١٦٨].

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٢٧.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤١٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٦.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٩٩.
(٥) المفردات ص٤٨٩.

أي: فرقًا متباينين في أقطار الأرض فقل أرض لا يكون منهم فيها شرذمة، وهذا حالهم في كل مكان تحت الصغار والذلة سواء كان أهل تلك الأرض مسلمين أم كفارًا ومنهم منحطون عن الصالحين وهم الكفرة، وذلك إشارة إلى الصلاح أي ومنهم قوم دون أهل الصلاح؛ لأنه لا يعتدل التقسيم إلا على هذا التقدير[(١)].

«يذكر تعالى أنه فرق بني إسرائيل في الأرض أممًا أي طوائف وفرقًا كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٤].

منهم الصالحون ومنهم دون ذلك أي فيهم الصالح وغير ذلك»[(٢)]، وجعل كل فرقة منهم في قطر من أقطارها، بحث لا تخلو ناحية منها، منهم، تكملة لإدبارهم، حتى لا تكون لهم شوكة منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، أي من ينحط عن درجة الصلاح، لكفر أو فسق[(٣)].

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤].

فقد بين الله تعالى في الآية أن أهل الكتاب ليسوا سواء بل إن منهم أمة أهل الإيمان، ومنهم أمة أهل الكفر، فهم غير متساوين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشر[(٤)].

الثاني: وقد يكون الصلاح المعنوي في أفراد وصفهم الله بذلك، قال تعالى في يحيى عليه السلام: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].

والصالح الذي يؤدي لله ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم[(٥)].

وقال سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦] يعني أنه من العباد الصالحين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء وإنما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ما وصفه بالأوصاف العظيمة؛ لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات؛ لأنه لا يسمى المرء صالحًا حتى يكون مواظبًا على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، فلما وصفه

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٥/ ٢٠٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٨.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢١٤
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١١٨.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧٩.

الله تعالى بكونه وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يكلم الناس في المهد وكهلًا أردفه بقوله ومن الصالحين ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

والآيات الواردة في وصف الأنبياء بالصلاح كثيرة وما ذكرناه هو على سبيل المثال لا الحصر.

وقال تعالى في وصف الأفراد من غير النبيين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية[2].

أما صلاح الجن فإنه من الصلاح المعنوي، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن:١١]

«يقول تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ذلك ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي منا المؤمن، ومنا الكافر»[3].

والمعنى كما قال القرطبي: «أي لم يكن كل الجن كفارا بل كانوا مختلفين: منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء»[4].

ثانيًا: صلاح الأعمال:

إن صلاح الأعمال يكون فى إخلاصها لله سبحانه وتعالى، فالعمل الصالح هو ما أريد به وجه الله تعالى وينتظم جميع أنواعه من الصلاة والزكاة وغيرهما[5]، كما يكون العمل صالحًا، بالمتابعة على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد جمع الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٤-١٢٥][6].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٤٦.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٢٩٠.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٣.

صلاح الخلق

أولًا: صلاح الأنبياء عليهم السلام:

وصف الله سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم السلام بالصلاح، فقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة:١٣٠].

وقال في يحيى عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩].

وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦].

وقال سبحانه في زكريا وإلياس عليهم السلام مع السابقين: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

وقال في لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥].

وقال في إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦].

وقال في يونس عليه السلام: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

ويمكن بيان الحكمة من وصفهم بالصلاح فيما يأتي:

أولًا: تعظيم صفة الصلاح، وتعظيم للموصوف بها، قال الزمخشري مبينًا الحكمة من وصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح: «واعلم أن الصفة قد تذكر للعظم في نفسها ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويها بقدر موصوفها. فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها، وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات:١١٢] وأمثاله، تنويهًا بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الأنبياء، وبعثًا لآحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته»(١).

وقال الرازي: «والمعنى وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله

(١) الكشاف ١/ ٦٣٦.

تعالى ورضيهم، واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح ويدل عليه القرآن والمعقول، أما القرآن، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال: بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٦﴾ [الأنبياء:٨٦]وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤].

وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون، فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالًا على أكمل الدرجات»[1].

ثانيًا: خص الأنبياء بذكر الصلاح؛ لأنه لا يتخلل صلاحهم خلاف ذلك، وقال الزجاج: الصالح هو الذي يؤدي ما افترض عليه وإلى الناس حقوقهم.

ثالثًا: ومن الحكمة أيضًا أن الصلاح والإصلاح هو الغاية للنبوة؛ لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق، كما أن وصفهم بالصلاح فيه بيان بأنهم من المستعدين لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة[2].

رابعًا: ووصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح يدل على أن الصلاح درجة عالية لا ينالها إلا أهل الاجتباء[3].

وذكرها للتنويه بشأن الصلاح، فإن الأنبياء معدودون في زمرة أهله، وإلا فإن كل نبي لا بد أن يكون صالحًا، والنبوة أعظم أحوال الصلاح[4]، وفي ذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات[5].

خامسًا: أن الصلاح وصف للأنبياء عليهم السلام، ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح[6].

والصلاح على إطلاقه هو أكمل صفة وأتمها يمكن أن يظفر بها إنسان حتى الأنبياء فهى الكمال الإنسانى فى أعلى مراتبه وأشرف منازله، ولهذا كان من دعوات الأنبياء عليهم السلام أن يكونوا من عباد الله الصالحين.

كما قال الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ

(١) مفاتيح الغيب ٨/ ٣٣٤.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٤٧٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١٢٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٦٢.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٩/ ١٠٧.
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٢/ ٧١.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل:١٩].

وقال تعالى على لسان إبراهيم، وهو يطلب الولد الصالح: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات:١٠٠].

وقال سبحانه في وصف عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران:٤٦]ومعنى هذا أن الصلاح صفة ملازمة له، قبل النبوة ومع النبوة، فلو لم يكن نبيا من الأنبياء لكان صالحا من عباد الله الصالحين(١).

أما الحكمة من طلب الذرية الصالحة:

الحكمة من الدعاء بطلب الصالحين في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات:١٠٠]؛ لأن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء:٨٣].

وطلبه للولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات:١٠٠]؛ وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد(٢).

والمعنى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة يعني الولد لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به(٣)، ولقوله تعالى سأل إبراهيم رب هب لي من الصالحين [الصافات:١٠٠].

وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان:٧٤].

هكذا الواجب أن يطلب الولد، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم(٤).

لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحًا فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء، ومن صلاحهم برهم بوالديهم(٥).

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: واجعل الصلاح ساريًا في ذريتي راسخًا فيهم، أو: اجعل ذريتي موقعا للصلاح دائمًا فيهم، إني تبت إليك من كل ذنب، وإني من المسلمين

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٤٤٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٤٥.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٩٩.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣١٠.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٤٨.

الذين أخلصوا لك أنفسهم، وانقادوا إليك بكليتهم(١).

وفي الآية إشارة لرغبة المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه، والذرية الصالحة أمل العبد الصالح، وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله(٢).

ولأن في صلاح الولد الإحسان إلى الوالدين في المشاهدة والغيبة وبجميع وسائل الإحسان الذي غايته حصول النفع لهما، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤].

وأن الله لما أمر بالدعاء للأبوين وعد بإجابته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله: (**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**)(٣).

ثانيًا: أسباب صلاح الخلق:

١. الاصطفاء الإلهي.

إن من أسباب صلاح الخلق الاصطفاء الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: ١٣٠]

والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، والاصطفاء ضربان، أحدهما في الآخرة والأخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته لخصوصيته فيه(٤).

والاصطفاء: الاختيار بإخراج الصفوة من العباد والصالح من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه(٥).

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إمامًا، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة، ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم ١٦٣١ ٣/ ١٢٥٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٧.
(٥) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ١٧١.

الذي نصبه الله لعباده[1].

وبسبب الصلاح اصطفى الله تعالى من ذكرهم وآباءهم وإخوانهم وذريتهم في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (٨٤) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (٨٥) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين (٨٦) ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (٨٧)﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧].

وقوله: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم (٤٨) لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم (٤٩) فاجتباه ربه فجعله من الصالحين (٥٠)﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

وهذا الاصطفاء هو بمشيئة الله تعالى واختياره، قال تعالى: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ [الشورى:١٣].

والمعنى: أن الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحب، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه[2].

قال الشنقيطي: «وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه، وقد بين في مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ۩ (٧٧) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾ [الحج:٧٧-٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير (٣٢)﴾ [فاطر:٣٢].

وبين في موضع آخر أن منهم آدم، وهو قوله تعالى: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (١٢٢)﴾ [طه:١٢٢].

وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين (١٢٠) شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم (١٢١)﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين»[3].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٩١.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٥١٤.
(٣) أضواء البيان ٧/ ٦٣.

٢. المسارعة في الخيرات.

إن من أسباب صلاح الخلق المسارعة في الخيرات، فقد ذكر سبحانه أن من أسباب صلاح بعض أهل الكتاب وغيرهم هو المسارعة في الخيرات.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٤].

قال ابن باديس: «ذكر الله تعالى في الآية الكريمة الأعمال، ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين، فأفادنا أن الأعمال هي دلائل الصلاح، وأن الصلاح لا يكون إلا بها، ولا يستحقه إلا أهلها، ثم إن العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال، ويكون لنا أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد. ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند الله في الباطن؟ فندعي أن هذا أعلى درجة في صلاحه عند الله تعالى من هذا، لأن الأعمال قسمان: أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وهذه أصل لأعمال الجوارح»(١).

والمسارعة في الخيرات سبب لصلاح الذرية والأزواج، ماديًّا ومعنويًّا، خَلْقًا وخُلُقًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يروى أنها كانت عقيمًا فجعلها الله عز وجل ولودًا، ويروى أنه كان في خلقها سوء فأصلح الله ذلك وحسن خلقها(٢).

٣. الدعاء.

إن من أسباب صلاح الخلق الدعاء، فقد أرشد الله تعالى الإنسان إلى ذلك في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

ففي الآية إرشاد بالدعاء بصلاح الذرية، وإرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها (٣)

وروي: أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق وأبيه أبي قحافة عثمان بن عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الآية نزلت في

(١) انظر: تفسير ابن باديس ص٧٥.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٣.
(٣) أضواء البيان ٧/ ٢٥٩.

أبي بكر رضي الله عنه أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أسلم أبواه غيره أوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، وكان أبو بكر صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام، فلما بلغ أربعين سنة، ونبئ النبي صلى الله عليه وسلم آمن به ودعا ربه فقال رب أوزعني، ألهمني، أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، بالهداية والإيمان، وأن أعمل صالحًا ترضاه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: وأجابه الله عز وجل فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، ولم يرد أبو بكر رضي الله عنه شيئًا من الخير إلا أعانه الله عليه، ودعا أيضا فقال: وأصلح لي في ذريتي، فأجابه الله فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا فأدرك أبو قحافة النبي صلى الله عليه وسلم وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة. قوله: إني تبت إليك وإني من المسلمين(1).

و لما كان الدعاء سببًا في صلاح الخلق كان من سنة الأنبياء عليهم السلام، فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء:٧٨-٨٣].

والمعنى في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي كمالًا في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورئاسة الخلق. وألحقني بالصالحين ووفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره(2).

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٩]

فقد دعا سليمان ربه بأن يوفقه؛ لأن يعمل صالحًا، وأن يدخله في عباده الصالحين في الجنة(3) مما يدل على أن الدعاء سبب في صلاح الخلق.

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٥.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٤٢.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ٤/ ٨٧.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١].

يقول: وألحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك[١]، أو ألحقني بالصالحين قال: يعني أهل الجنة[٢].

وفي الآية إشارة إلى أن الدعاء سبب في صلاح الخلق الذي هو سبب للحوق الصالحين في الجنة.

٤. التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إن من أسباب الصلاح التواصي بالحق بين الناس، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

والحق الذي ذكر الله بالتواصي به هو كتاب الله تعالى، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على العمل بطاعة الله[٣].

فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنها الحسنات والفضائل بسهولة[٤].

ثالثًا: مظاهر صلاح الخلق:

١. تحري أكل الطيبات.

إن من مظاهر صلاح الخلق تحري أكل الطيبات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١].

فقد أمر الله كل نبى فى زمانه بأن يأكل من المال الحلال مالذ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال، ليكون ذلك جزاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة.

وهذا الأمر، وإن كان موجهًا إلى الأنبياء، فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول: أيها المسلمون فى جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أي من الحلال الصافي القوام، والحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل واعملوا صالح الأعمال[٥].

والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه. وقيل: هو الأكل المعتاد[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٧٨.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٩٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٢٨.
(٥) تفسير المراغي ١٨/ ٢٩.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٥.

الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون:٥١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة:١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»[(١)].

وفي تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لا يتقبل إلا إذا سبق بأكل المال الحلال.

ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أي إني بأعمالكم عليم، لا يخفى على شيء منها، وأنا مجازيكم بجميعها، وموفيكم أجوركم، وثوابكم عليها، فخذوا في صالح الأعمال، واجتهدوا قدر طاقتكم فيها، شكرًا لربكم على ما أنعم به عليكم، وفي هذا تحذير من مخالفتهم ما أمروا به، وإذا قيل للأنبياء ذلك فما أجدر أممهم أن تأخذ حذرها، وترعوي عن غيها، وتخشى بأس الله وشديد عقابه[(٢)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٠١٥، ٢/٧٠٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ٢٩.

٢. الصدقات.

إن من مظاهر الصلاح الصدقات بكل أنواعها، وذلك لارتباط العمل الصالح بها، سواء أكان ذلك في الصدقات الواجبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة:٢٧٧]

فقد وعد سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بالأجر العظيم، والرحمة والرضوان، والأمن يوم الفزع الأكبر ذلك لأنهم استقاموا على الصراط المستقيم، وجاءتهم الموعظة فاستمعوا إليها، وامتثلوا لها، وانتهوا عما نهوا عنه من منكرات كانوا يأتونها وهم جاهلون، و«إيتاء الزكاة» هنا له آثاره في التحريض على البذل والإنفاق على ذوي الحاجات، حتى لا تضطرهم الحاجة إلى التعامل بالربا[(٣)].

أو كان ذلك في صدقات التطوع والتي منها الصدقات في الجهاد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٣٥٩.

مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١].

فقد بينت الآية ارتباط صدقات التطوع في الجهاد بالعمل الصالح، مما يدل على ان الصدقات من مظاهر الصلاح.

وقد بين الله تعالى أن غير المتصدقين من المؤمنين قد أخلوا بسبب رئيس من أسباب الصلاح حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون:١٠].

فقد ذكر الله المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأن عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت، أي قبل تعذر الإنفاق والإتيان بالأعمال الصالحة، وذلك حين يحس المرء بحالة تؤذن بقرب الموت ويغلب على قواه فيسأل الله أن يؤخر موته ويشفيه ليأتي بكثير مما فرط فيه من الحسنات طمعا أن يستجاب له فإن كان في أجله تأخير فلعل الله أن يستجيب له، فإن لم يكن في الأجل تأخير أو لم يقدر الله له الاستجابة فإنه خير كثير[1].

كما بين تعالى أن البخل بالإنفاق من أعمال المنافقين، قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

أي: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به والإنفاق فى سبيل الله: كإعداد العدة للجهاد وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شئونها.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشيء، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة وإصلاح حالهم وحال أمتهم كما عاهدوا الله عليه، ولم يكن ذلك التولي عارضا طارئا، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ومنعهم عن التصدق، بحيث إذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون، وإذا دعوا لا يستجيبون[2].

[انظر: الإصلاح: الإصلاح في الأخلاق]

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٥٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٦٨.

صلاح الأعمال

أولًا: اقتران الإيمان بالعمل الصالح:

يقترن العمل الصالح بالإيمان في القرآن الكريم في خمس وسبعين مرة، مع الوعد والبشرى بأن من يعمل صالحا وهو مؤمن، فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، ولا كفران لسعيه، له جزاء الحسنى، وحياة طيبة.

وقد أخبر الله تعالى عن الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات، وقليل ما هم، بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن لهم الدرجات العلى، وأن لهم أجرهم عند ربهم، وأن لهم أجر كريم، وعظيم وكبير، وغير منون، ولهم مغفرة ورزق كريم، وليستخلفنهم الله في الأرض، ويزيدهم من فضله، وسيجعل لهم الرحمن ودًا، وهو خير البرية، وأصحاب الجنة، طوبى لهم وحسن مآب[1].

ومن هذه الآيات التي اقترن فيها العمل الصالح بالإيمان قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة:٢٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران:٥٧].

وغيرها من الآيات الكثير.

وتظهر الحكمة من اقتران العمل الصالح بالإيمان فيما يأتي:

أولًا: أنه لابد مع الإيمان من العمل الصالح؛ فمجرد الإيمان لا ينفع العبد حتى يقوم بواجبه، أي واجب الإيمان: وهو العمل الصالح.

ثانيًا: أن العمل لا يفيد حتى يكون صالحًا؛ والصلاح أن ينبني العمل على أمرين: الإخلاص لله عز وجل، وضده الشرك؛ والمتابعة، وضدها البدعة؛ فمن أخلص لله في شيء، ولكنه أتى بعمل مبتدع لم يقبل منه؛ ومن أتى بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه؛ وأدلة هذا معروفة[2].

---

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطئ ٢/ ٨٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٣٨١.

ثالثًا: الإيمان أفرد وحده في آيات كثيرة، وقرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة، فالآيات التي أفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره، وهو عند السلف: قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٧].

يفسر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة، والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية[١].

رابعًا: أن عامة ذكر الإيمان في القرآن مقرونة بالأعمال الصالحة تنبيهًا إلى أن جملة الاعتقاد والمقال لا اعتداد بها ما لم يضامها الأعمال الصالحة، إذ الاعتقاد كالأس، والعمل كالبناء، ولا غناء في أس بلا بناء، كما لا ثبات لبناء بلا أس[٢].

خامسًا: أن الأعمال الصالحة من تمام الإيمان، ومن لم يأت بذلك فإنه يقال له مؤمن على المجاز[٣].

سادسًا: أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكرارًا، وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة[٤]؛ لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح، وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره فلو قال: والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع، فإن قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين، فنقول: له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس:٩] دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي ص٤٨.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٤٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨٤.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٥/ ٨٥.

والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور[1].

وبهذا يتبين أن الإيمان هو الاعتقاد فقط، أما الأعمال الصالحات والإيمان فكل منهما غير الآخر ولكن الجمع بينهما شرط لاستحقاق البشارة بالجنات[2].

ثانيًا: أسباب صلاح الأعمال:

إن أسباب العمل الصالح تتمثل في: الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الآيات التي جمعت بين ذلك قوله تعالى:. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٤-١٢٥].

فالآيتان تبينان شرطا العمل الصالح اللذان لا يصح عمل عامل بدونهما، وهما الإخلاص والمتابعة فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقا وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالًا جاهلًا، ومتى جمعهما كان عمله من أعمال المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف:١٦][3].

وكل عمل لا يقوم على أسباب العمل الصالح يكون يوم القيامة لا قيمة له ولا وزن، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

قال ابن كثير: «هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ قال مجاهد والثوري ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي: عمدنا، وكذا قال السدي، وبعضهم يقول: أتينا عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة، وكذا روي من غير هذا الوجه

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٣٠.
(٢) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي ١/ ٣٣٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٣.

عن علي وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: هو الماء المهراق. وقال أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: الهباء رهج الدواب، وروي مثله عن ابن عباس أيضًا والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]

إن العمل لا يكون صحيحًا مقبولًا عند الله إلا إذا توفرت فيه ثلاثة شروط على وجه الإجمال، دل عليها الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: أن يكون العامل مؤمنًا موحدًا.

الشرط الثاني: الإخلاص وهو أن يقصد بعمله وجه الله عز وجل.

الشرط الثالث: المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو أن يعمل مهتديا بشريعة النبي صلى الله عليه وسلم من دون غلو أو ابتداع[2].

والدليل على وجوب المتابعة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن المنذر: «جعل الله اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم علما لحبه، وكذب من خالفها، ثم جعل على كل قول دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا حسنا رفع الله قوله بعمله، وإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا حسنا رفع الله قوله بعمله، وإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا سيئا رد الله القول على العمل، وذلك في كتابه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»[3].

ثالثًا: تمني القيام بالعمل الصالح بعد الموت:

بين الله تعالى أن من لا يعمل صالحًا يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحًا، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٩٣.

(٢) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، الجربوع ٢/ ٥٤١.

(٣) تفسير ابن المنذر ١/ ١٦٩.

فهم يستغيثون ربهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي أخرجنا إلى الدنيا فنؤمن بدل الكفر ونطيع بدل المعصية، فوبخهم الله فقال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[1].

قال الماوردي: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: أنه البلوغ، قاله الحسن لأنه أول زمان التذكر.

الثاني: ثماني عشرة سنة.

الثالث: أربعون سنة، قاله ابن عباس ومسروق.

الرابع: ستون سنة، قاله علي بن أبي طالب مرفوعًا.

الخامس: سبعون سنة؛ لأنه آخر زمان التذكر، وما بعده هرم.

قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن زيد.

الثاني: الشيب، حكاه الفراء والطبري.

الثالث: الحمى.

الرابع: موت الأهل والأقارب.

ويحتمل خامسًا: أنه كمال العقل[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة:١٢].

«يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم، أي من الحياء والخجل يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك:١٠]، وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله»[3].

ولا يقتصر تمني من لا يعمل صالحًا على ذلك في الآخرة بل يتمنى قبل ذلك عند حضور الموت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٧١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٣.

﴿أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾ [المنافقون:١٠-١١][(١)].

ولما تمنى أن يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله: كلا إنها كلمة هو قائلها فجاء بكلمة الردع والزجر، والضمير في «إنها» يرجع إلى قوله: رب ارجعون أي: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء، كما في قوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقيل: إن الضمير في ﴿قَآئِلُهَا﴾ يرجع إلى الله، أي: لا خلف في خبره[(٢)].

جزاء الصلاح في الدنيا والآخرة

بين الله تعالى في كتابه الكريم الجزاء على الصلاح، وأنه يكون في الدنيا للصالحين، ويكون كذلك في الآخرة بسبب صلاحهم.

أولًا: جزاء الصلاح في الدنيا:

إن جزاء الصلاح في الدنيا يتمثل في وراثة الأرض، وصلاح الأولاد، وولاية الله تعالى، والنجاة من المجرمين، والاصطفاء الإلهي، والتوفيق للهداية للحق والصواب، والمودة والمحبة في قلوب الخلق، وفضل الله تعالى على الصالحين، والخروج من الظلمات إلى النور، والخيرية بين الخلق، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. وراثة الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء:١٠٥].

يقول تعالى مخبرًا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٢٩.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٨٩.

﴿خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾[1].

وقد اختلف المفسرون في معنى الأرض المذكورة في الآية، على أقوال، والراجح من هذه الأقوال: إن الأرض هي الدنيا[2]، ورجح هذا القول الإمام الزجاج[3]؛ وذلك لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها، وأحوال الخلق يوم القيامة جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت هذه الآية في أمة محمد؛ لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يسبق الكلام إلا عليها؛ فخوطبت بما قضاه الله وكتبه من إرث الصالحين الأرض.

ولأن المخاطبين بهذه الآية المكية هم المؤمنون بالله، الموحدون له، المتبعون لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم المصدق لجميع الرسل صلوات الله عليهم، وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلامًا بما كتبه الله لهم، ووعدًا بإرثهم الأرض[4].

٢. صلاح الأولاد.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن من جزاء الصلاح في الدنيا صلاح الأولاد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

فقد أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح[5].

وعن ابن عباس أيضا قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية[6]، وبهذه الروايات يتبين أن صلاح الأولاد ثمرة وجزاء لصلاح الآباء في الدنيا.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٣٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٩٢.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٥٠، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٤٩.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٧.
(٤) انظر: تفسير ابن باديس ص٣٤٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٩١، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.

٣. ولاية الله تعالى.

ثبتت ولاية الله تعالى للصالحين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦].

والمعنى: أن الله تعالى هو حسبي وكافي، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود:٥٤-٥٦].

وكقول الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ [الشعراء:٧٥-٧٨].

وكقوله لأبيه وقومه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨][1].

قال الخازن: «إن وليي الله يعني: أن الذي يتولى حفظي وينصرني عليكم هو الله الذي نزل الكتاب، يعني القرآن، والمعنى كما أيدني بإنزال القرآن علي، كذلك يتولى حفظي وينصرني، وهو يتولى الصالحين يعني يتولاهم بنصره وحفظه، فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر، قال ابن عباس: يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئًا ولا يعصونه وفي هذا مدح للصالحين لأن من تولاه الله يحفظه فلا يضره شيء»[2].

وقال الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾« أي أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم، بل يقول لكل واحد من أتباعه: كن صالحًا في أي وقت، أمام أي عدو، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر، وساعة يعمم الله الحكم؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية في قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم، وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئًا ما سوف يكون له هذا التأييد، وهو سبحانه الذي جعل رسوله مبلغًا عنه هذا المنهج، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح في الكون، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه، أو أن يزيده

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٧٩.

(٢) انظر: لباب التأويل ٢/ ٢٨٣.

صلاحًا إن أمكن»[1].

٤. النجاة من المجرمين.

إن الله تعالى ينجي الصالحين من المجرمين ومكرهم وتآمرهم كما نجى الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٢].

والمعنى: ونجينا إبراهيم ولوطًا من أعدائهما نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض الشام، فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام[2].

وكما نجى الله تعالى نبيه لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥].

والمعنى: ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث يعني: قرية سدوم وأراد أهلها وأراد بالخبائث إتيان الذكور في أدبارهم، وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع أشياء أخرى كانوا يعلمونها من المنكرات إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا قيل: أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب إنه من الصالحين أي الأنبياء[3].

كما نجى الله تعالى نبيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٠-٨٢].

كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤١-١٤٢].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هي في معناها فيها تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم، حيث أنجاهم سبحانه ممن أراد لهم السوء، وعمل على قتلهم

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٣٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٦٨.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٣٢

وإبادتهم واستئصال شأفتهم، وفي ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد في شكر الله عز وجل لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم[١].

وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يونس:١٠٣].

قال أبو جعفر: «يقول تعالى ذكره: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك: انتظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلكم من الأمم السالفة الذين هلكوا بعذاب الله، فإن ذلك إذا جاء لم يهلك به سواهم، ومن كان على مثل الذي هم عليه من تكذيبك، ثم ننجي هناك رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم ومن آمن به وصدقه واتبعه على دينه، كما فعلنا قبل ذلك برسلنا الذين أهلكنا أممهم، فأنجيناهم ومن آمن به معهم من عذابنا حين حق على أممهم﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناها والمؤمنين معها وأهلكنا أممها، كذلك نفعل بك، يا محمد، وبالمؤمنين، فننجيك وننجي المؤمنين بك، حقا علينا غير شك»[٢].

والنجاة للصالحين تكون من أعدائهم، ومن مكاره الدنيا والآخرة، وشدائدهما﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج:٣٨]

فإنه -بحسب ما مع العبد من الإيمان- تحصل له النجاة من المكاره[٣].

٥. الاصطفاء الإلهي.

إن الاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، والاصطفاء ضربان، أحدهما في الآخرة والآخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته لخصوصيته فيه [٤]، والاصطفاء: الاختيار بإخراج الصفوة من العباد والصالح من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه[٥].

وبسبب الصلاح اصطفى الله تعالى من ذكرهم وآباءهم وإخوانهم وذريتهم في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٢٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢١٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٥.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٧
(٥) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ١٧١

وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

وهذا الاصطفاء هو بمشيئة الله تعالى واختياره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

والمعنى: أن الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحب، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه عليه صلى الله عليه وسلم من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه[(١)].

٦. التوفيق للهداية للحق والصواب.

من الجزاء على الصلاح في الدنيا التوفيق للهداية للحق والصواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس:٩].

والهداية هي: الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه، فمعنى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ يرشدهم إلى ما فيه خيرهم، والمقصود الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها، وأما الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

وفي تكوين هدايتهم إلى الخيرات بجعل الله تعالى، بأن يجعل الله للإيمان نورًا يوضع في عقل المؤمن، ولذلك النور أشعة نورانية تتصل بين نفس المؤمن وبين عوالم القدس فتكون سببًا مغناطيسيًا لانفعال النفس بالتوجه إلى الخير والكمال لا يزال يزداد يومًا فيومًا، ولذلك يقترب من الإدراك الصحيح المحفوظ من الضلال بمقدار مراتب الإيمان والعمل الصالح[(٢)].

والهداية هي التسديد والمعنى: يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدي إلى الثواب ولذا جعل ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانًا له وتفسيرًا إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، أو يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة[(٣)].

٧. المودة والمحبة في قلوب الخلق.

ومن الجزاء على الصلاح في الدنيا أن الله تعالى يجعل المودة والمحبة في قلوب الخلق للصالحين بسبب صلاحهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٠١.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٨.

[مريم:٩٦].

أي: حبًا يحبهم ويحببهم إلى عباده المؤمنين من أهل السموات والأرضين[١].

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، - وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة-، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه[٢]، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **(إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)**[٣].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)**[٤].

ومودة الناس تكسب بأسباب متعارفة بينهم منها القرابة، ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف، ومآثر الإحسان، أما هذا الود الذي وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فسببه جعل من الله له في قلوب العباد لهم، دون تردد منهم، ولا توقف على تلك الأسباب، فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة، ولا وصل إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به، وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم، زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى، هذا الجعل للود منها[٥].

٨. فضل الله.

إن من جزاء العمل الصالح في الدنيا أن الله تعالى يتفضل على الذين آمنوا وعملوا الصالحات بنعمه ورزقه زيادة على ما

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٣٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩، ٤/ ١١١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم ٢٦٣٧، ٤/ ٢٠٣٠.
(٥) انظر: تفسير ابن باديس ص٣٤٠.

يطلبوه منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى:٢٦].

قال الإمام ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يقول تعالى ذكره: ويزيد الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع إجابته إياهم دعاءهم، وإعطائه إياهم مسألتهم من فضله على مسألتهم إياه، بأن يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: إن ذلك الفضل الذي ضمن جل ثناؤه أن يزيد هموه، هو أن يشفعهم في إخوان إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم، فشفعوا فيهم[(١)].

٩. الخروج من الظلمات إلى النور.

إن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب كي يخرج الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوه من الظلمات إلى النور، يعني من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمة الباطل إلى ضياء الحق، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الباطل إلى الحق، وما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق:١١][(٢)].

قال ابن كثير: «﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا لما يحصل به من الهدى كما سماه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]»[(٣)].

١٠ الخيرية بين الخلق.

إن الخيرية بين الخلق جزاء للعمل الصالح قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧].

يعني أنهم بسبب أعمالهم الصالحة

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٨، النكت والعيون ٦/ ٣٦، تفسير السمعاني ٥/ ٤٦٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٧٧.

واجتنابهم الشرك استحقوا هذا الاسم[1].

والمعنى: «إن الذين آمنوا أي بالله ورسوله محمد، صلى الله عليه وسلم وعملوا الصالحات، أي من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق، وبذل المال في أعمال البر، مع القيام بفرائض العبادات، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات؛ لأن إذعانهم الصحيح، ووجدانهم لذة معرفة الحق، ملكت الحق قيادهم، فعملوا الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي أفضل الخليقة؛ لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها، وبالعمل الصالح، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هدوا إليه من الخير والسعادة فمن يكون أفضل منهم؟»[2].

ثانيًا: جزاء الصلاح في الآخرة:

يتمثل جزاء الصلاح في الآخرة في مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، والجنة ونعيمها، والدرجات العليا، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم، ورضا الله ورؤية وجهه الكريم، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

١ . مغفرة الذنوب وتكفير السيئات.

ذكر الله تعالى في آيات كثيرات أن جزاء العمل الصالح في الآخرة هو مغفرة الذنوب وتكفير السيئات. منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾ [محمد:٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾ [الفرقان:٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩﴾ [المائدة:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت:٧].

وغيرها من الآيات.

والمراد بالغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب[3]، والمراد بتكفير السيئات: سترها بالإيمان والعمل الصالح، والمراد إزالها ولم يؤاخذهم بها[4].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٥٦.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٥٢٤.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ٦٠٩.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٩٥.

٢. الجنة و نعيمها.

بين الله تعالى في آيات كثيرات أنه سيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة وأن لهم فيها نعيم دائم وأزواج مطهرة وظلال وارف، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء:٥٧].

والجنات، يعني: بساتين تجري من تحتها الأنهار، وهم خالدون، أي باقون فيها أبدًا بغير نهاية ولا انقطاع، دائما ذلك لهم فيها أبدًا، ولهم في تلك الجنات أزواج مطهرة، يعني: بريئات من الأدناس والريب والحيض والغائط والبول والحبل والبصاق، وسائر ما يكون في نساء أهل الدنيا﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ أي وندخلهم ظلّا كنينًا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾ [الواقعة:٣٠].

وكما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم** ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾ [الواقعة:٣٠])[١][٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج:٢٣].

والأساور جمع أسورة، وأسورة واحدها سوار، وفيه ثلاث لغات: ضم السين وكسرها وإسوار، قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، وفي فاطر: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ [فاطر:٣٣].

وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان:٢١].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: (**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**)[٣][٤].

وفي الجملة إن الله تعالى يهب للذين آمنوا وعملوا الصالحات نعمًا كثيرة، وتنعيمًا عظيمًا في الجنة، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٥٢، ٤/ ١١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٨٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٢٥٠، ١/ ٢١٩.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج:٥٦]:والنعيم:النعمة الكثيرة، وتنعم:تناول ما فيه النعمة وطيب العيش، يقال:نعمه تنعيما فتنعم. أي:جعله في نعمة. أي:لين عيش وخصب[(١)].

٣. الدرجات العليا.

بين الله تعالى أن الدرجات العلى هي جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه:٧٥].

أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات[(٢)].

وهذه الدرجات العليا هي جنات الفردوس على أحد المعاني الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف:١٠٧].

قال الإمام الماوردي: « في ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ خمسة أقاويل:

أحدها: أن الفردوس وسط الجنة وأطيب موضع فيها، قاله قتادة.

الثاني: أنه أعلى الجنة وأحسنها، رواه ضمرة مرفوعًا.

الثالث: أنه البستان بالرومية، قاله مجاهد.

الرابع: أنه البستان الذي جمع محاسن كل بستان، قاله الزجاج.

الخامس: أنه البستان الذي فيه الأعناب، قاله كعب»[(٣)].

قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها. وقال أبو أمامة الباهلي: الفردوس سرة الجنة. وقال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر[(٤)].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)**[(٥)].

والدرجات العليا هي الغرفات المذكورة

---

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٨١٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٩.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٤٨.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٦٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، رقم ٢٧٩٠، ٤/ ١٦.

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ:٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨﴾ [العنكبوت:٥٨].

والغرفة في اللغة: العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية[١].

٤. مرافقة الذين أنعم الله عليهم.

أخبر الله تعالى أن مرافقة الذين أنعم الله عليهم من جزاء الصلاح في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

والمعنى: ومن يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضى بحكمهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل الجنة والصديقين وهم جمع صديق، والصالحين، وهم جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته، وحسن، هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة[٢].

والآية تدل على أن مرتبة الصلاح مرتبة عظيمة جامعة لجميع المراتب؛ لأن الصالح إذا ترقى من مقامه يسمى شهيدا ثم صديقا ثم نبيًا[٣].

٥. رضا الله ورؤية وجهه الكريم.

ثبت رضا الله تعالى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٧-٨].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بما أطاعوه في الدنيا، وعملوا لخلاصهم من عقابه في ذلك ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بما أعطاهم من الثواب يومئذ، على طاعتهم ربهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة[٤].

وهذا الرضا هو بسبب عملهم الصالح جزاءلهم قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٨].

ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٣٠.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٤/ ٣٢٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٤٢.

النعيم المقيم، ورضوا عنه فيما منحهم من الفضل العميم»[1].

أما النظر إلى وجهه الكريم فيدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

قال الإمام ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف»[2].

والزيادة هي النظر إلى وجه الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس رضي الله عنهم، وقتادة، والضحاك، ونحو ذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: (تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦])[3][4].

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، التغيير، الدعوة، الدفع، الفساد، النصيحة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٩.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.